النشاط الثقافي في الغرب

انكلترا

التراجيديا المعاصرة

***

صدر مؤخرا كتاب «التراجيديا المعاصرة» للكاتب البريطاني ريموند وليامز . وقد نشر « الملحق الادبي لجريدة التايمس » بتاريخ ١١ اب الجاري مقالا بعنوان « عهد التراجيديا » ، بمناسبة صدور هذا الكتاب.

وقد أشار كاتب المقال الى ان كتابا كثيرين قد بحثوا التراجيديا ، ولكن القلة القليلة منهم قد عالجت موضوع الكوميديا،ذلك أن للتراجيديا صلة بالنسيج المحير القاسي للتاريخ المعاصر . ومن هنا نجد ان كتبا عديدة قد عالجت « مسرح القوة » و « ما وراء المسرح » و « موت التراجيديا » و « معاصرة شكسبير » وما الى ذلك من موضوعات اخرى. ثم يقول : ان التراجيديا ، بعد تشيكوف وصموئيل بيكيت تحولت الى شكل مختلط مفتوح .

ويمضي الكاتب فيتحدث عن كتاب وليامز فيقول : « ان كتابه هذا يرتد لمعالجة النقاش النقدي للمجاميع الكلاسيكية ... ارسطو ، لسنغ، هيغل وبرادلي . وان الباعث المستتر في فكر المؤلف ، وهاتيك الاسئله المثارة عنده ، تبدو وكأنها جميعا نابعة من مناقشة الظروف الفاجعة والسياق التاريخي وتأكيد الفردية ، وتيار الالتزام الاجتماعي وما شهدناه من امثال ذلك، في الثلاثينات من القرن وكذلك نتائج الستالينية، فيما بعد . ويبدو ان « التراجيديا المعاصرة » تنطلق من تروتسكي في كتابه « الادب والثورة » ، ومن جورج لوكاس في كتابه « الواقعية الاوروبية » .

ويبدأ الكاتب بمحاولة لاعادة صيغ بعض الحالات الاساسية في النظرية النقدية للتراجيديا ، مع ملاحظة ما طرأ على الادب التراجيدي من تطورات في الاونة الاخيرة . وان بحث وليامز ذلك البحث المضغوط ضغطا متماسكا عن مفاهيم التراجيديا الارسطوطاليسية والاليصاباتية والبورجوازية ، من شانها ان تقوده الى بحث الكيفية التي تحولت بها الدراما التراجيدية ، في « فكر ما بعد هيغل » الى طبيعة متناحرة ومتطورة ايضا للحياة ذاتها . وتنتهي مناقشة وليامز بالتأكيد على « ان الفترة التي نحياها هي الفترة الكبرى لكتابة الاثار التراجيدية»،وبالوسع عقد مقارنة بين هذه الفترة والفترات الماضية في التاريخ . ويتحتم علينا ، قبل كل شيء ، ان نمسك بالخيوط القائمة ما بين « الشكل الفاجع » وتجربة العصر الاساسية ، اي « الثورة » ، اذا ما اردنا ان نضع كل ما لدينا ، عن هذا الموضوع ، في بؤرة مفهومة تمكننا من معرفة الاسباب التي أدت الى اخفاق نظريات التراجيديا في فهم الطبيعة الحقيقية للتعبير الفاجع المعاصر .

فمنذ عهد الثورة الفرنسية ، غدت فكرة التراجيديا ، في مجالات مختلفة ، محض استجابة لحضارة تعيش حركة وتغييراً واعيين . فالعناء الذي لا مناص منه في جميع الثورات الاجتماعية واللامعقولية المحتومة التي اصابت السياق الثوري بالتلويث ، وكذلك القسوة والعنف اللذان انطلقا سريعا بمجرد ان انهارت بعض الاشكال المألوفة ، كل ذلك يتضمن واقعا فاجعا ونمطا من انماط الفعل الفاجع وعلى صلة وثيقة بمفهوم التراجيديا .

فالفعل الفاجع ، باعمق معانيه ، ليس تأكيدا للفوضى ، ولكن تجربة الفوضى واستيعابها وقرارها . وفي عصرنا الراهن نجد ان هذا الفعل، بوجه عام ، هو الثورة ـ كما يدعى بالاسم العادي المألوف .

ان رؤية الثورة في المستوى الذي لا يمنح الشر اية قيم سامية ، ورؤية التراجيديا في المستوى الثوري امر جوهري ، اذا ما اردنا ان نتبين كليهما على نحو واضح . وبهذه الوسيلة فقط ، يمكننا ان نرأب الصدع ما بين نظريات التراجيديا ، بكل ما يحوطها من حيرة اكاديمية وبين الحنين ... ولكن هل هناك من تراجيديا حقيقية بعد تراجيديا فيدر ؟ ...

تلك هي قضية وليامز . ومن وراء هذه القضية قوة تحليلاته للحضارة والمجتمع والثورة منذ عام ١٧٨٠ . ولقد قدمت الينا هذه القضية بشكل قوي ، ولو انها قدمت في بعض الاحايين كالتزام مكبوت ازاء الامتيازات الفردية الفذة في ميدان النظرة الادبية النافذة ، وازاء القيم الاجتماعية الجماعية للفعل الثوري . ولقد وضع « التفاؤل » نقيضا للوعي على « أن المجتمعات الثورية لم تكن سوى مجتمعات فاجعة، وذلك في الاعماق والمستويات التي تذهب ابعد من الاشفاق والخوف.. والحق اننا نعيش منذ عام ١٩١٧ في عالم الثورات الاجتماعية الناجحة ... وان هذا التوتر المشدود ما بين هاتين القضيتين يشكل طبيعة الموقف .

لقد اوضح هيغل في « الفينومنولوجيا ـ علم الظواهر » ان اكثر من صلة ما بين الانسان والمجتمع قد تغيرت ، بعد الثورة الفرنسية... صلة الوعي الفردي بحقيقة الموت المفضوحة . فالنظرة الشعرية للتراجيديا ينبغي ان تأخذ ذلك كله ، بنظر الاعتبار ـ كما اشار الى ذلك والتر بنجامين في دراسته المشرقة عن مسرح الباروك الفاجع وعن فن بودلير .

اما بالنسبة لمسرح برخت فقد اشار المقال الى ان الفصل الذي كتب عن هذا الموضوع يتطلب بعض الوضوح .

ثم يشير بعد ذلك ، الى ان كتاب وليامز قد ابتدأ ببداية حكم ستالين وانتهى بوفاته . فما الذي يعنيه وليامز بذلك ؟

ان الفكر الماركسي ـ الستاليني كان يروج لنظرية سادت الاتحاد السوفياتي ، خلال الفترة الستالينية ، وهي تلك النظرية التي تذهب الى ان الفنون القديمة انما تنبثق عن صراعات الانسان الطبقية في مجتمعه ، لذا فان جميع هاتيك الفنون ، كانت اما فنونا متمردة ثائرة تمثل طليعة قوى المجتمع الصاعدة ، واما فنونا منحطة متفسخة تعبر عن القيم المنهارة . وفي المجتمع الذي تزول فيه الصراعات الطبقية ، تنبثق الفنون عن تناقض الانسان مع الطبيعة وغزوه لها ... وهكذا ستنعدم التراجيديا الى الابد ، في حياة الانسان !

ويبدو ان وليامز يحاول الرد على هذه النظرية التي عاشت بضع عقود من السنين ، والتي اكدت زوال التراجيديا من حياة الانسان .

ويبدو ايضا ـ من خلال عرض الكتاب ـ ان الكثير من الافكار التي اوردها وليامز قد رددها من قبل عدد من الادباء والمفكرين الانكليز، في مقدمتهم ستيفن سبندر الذي يمثل الخط الفكري المناقض للماركسية الستالينية في بريطانيا منذ نهاية الحرب الاهلية الاسبانية .

لقد اراد وليامز ان يقول بان الانسان يعيش عناصر التراجيديا في عالمه الراهن ، من خلال صراع روح الانسان لكل ما تمثله الستالينية من قهر ـ والستالينية هنا مجرد رمز ـ ... وكذلك كان يقول سبندر... كان يقول بان عصرنا الراهن هو عصر التراجيديا والملحمة باكثر مما كان عصر الاغريق . على الاقل ، من حيث المادة الخام .